

الخبرة الجمالية في ضوء علم النفس الحديث*

بقلم

محمد عماد الدين اسماعيل

مدرس علم النفس — معهد التربية للمعلمين

يؤكد علم النفس اليوم — سواء بشكل ضمنى أم بشكل صريح — فكرتين أساسيتين : الأولى هي النظرة البيولوجية للظواهر النفسية ، والثانية اعتبار السلوك الفطري للكائن الحي نشاطا كليا غير متميز . أما النظرة البيولوجية فتعتبر الظواهر النفسية عمليات يتحقق عن طريقها التكيف بين الكائن الحي والبيئة التي يعيش فيها . وبعبارة أخرى أن الحياة النفسية للكائن الحي هي عبارة عن مجموع السلوك المتخصص الذي يقوم به حتى يضمن لنفسه الحياة والبقاء — وأما النظرة الجديدة للسلوك الأولى فتعتبر أن السلوك المتخصص الذي يقوم به الكائن الحي إنما يبرز ويظهر تدريجا ، عن طريق التميز والتخصص ، من كتلة غير متميزة من النشاط الطبيعي — وقد كانت النظرة القديمة ، على العكس ، تعتبر أن النمو يحدث نتيجة لتركيبة عناصر متميزة أصلا من السلوك والخبرة في وحدات أكبر . وهاتان النظرتان ، التكوينية والكلية للظواهر النفسية ، تكمل كل منهما الأخرى ، مما يزيد في تدعيمها . ذلك أن الأفعال كلما زاد تميزها عند الكتلة غير المتميزة من السلوك الفطري زاد أثرها في العمل على التكيف باعتبارها استجابات محددة لمواقف خاصة . والغرض من هذا المقال هو أن نعرض رأيا في الخبرة الجمالية يتفق وهذا الرأي في طبيعة النشاط الإنساني وتطوره ، ولا يختلف في الوقت نفسه مع النظريات الجمالية في الفلسفة . وعلى ذلك فسوف نبين أولا كيف يفسر علم النفس الحديث الخبرة العادية ثم نوضح بعد ذلك مكان الخبرة الجمالية من هذه الصورة التي

(*) عن كتاب Twentieth Century Psychology: Edited by D. L. Harriman. The Philosophical Library, New York.

سنرسمها للخبرة العادية . وأخيراً نقارن النتائج التي سنخرج بها بالنظريات الفلسفية في الجمال .

يقرر علم النفس الحديث أن كل خبرة هي عبارة عن عملية تنظيم تتناول الآثار الحسية . وتكتسب بعض الخبرات نتيجة لتكامل هذه الآثار ، والبعض الآخر نتيجة لتآزرها . وعلى ذلك فسماع نغمة موسيقية أو شم رائحة أو تذوق طعم ، هي خبرات ناتجة عن تكامل عناصر حسية معينة حيث يفقد كل عنصر ذاتيته في الكل ، ولا يمكن فصله إلا عن طريق توجيه الانتباه إليه توجيهها مباشراً . في حين أن رؤية شجرة أو صورة أو وجه ، هي خبرات تحدث نتيجة عملية تآزر يحتفظ فيها كل جزء من الكل بذاتيته ، إلا أنها جميعاً تؤثر فينا تأثيراً واحداً ، هو أنها تنتمي إلى بعضها البعض . والخبرات ، أياً كانت ، تبدأ غامضة . ولذلك فإنها تكون غير متميزة إحداها عن الأخرى ، ثم لا يلبث أن يحل محل هذا الغموض والإبهام ، بالتدرج ، التحديد والتمييز ، الذي يزداد كلما اتضحت التفاصيل وظهرت العناصر شيئاً فشيئاً . فمعنى الشيء لا يتضح إلا إذا اتضحت عناصره ومكوناته مهما يكن ذلك الشيء . وعلى ذلك فكلما زاد بروز الأجزاء المكونة للكل وتميزت ، أصبح الكل نفسه أكثر تميزاً وتحدداً . وعلى العكس كما انحسرت العناصر في عدة كليات حتى قاربت الأرضية ، صعب تميز هذه الكليات عن بعضها البعض . وعلى ذلك فالعملية الأولى في نشوء أى خبرة هي عملية تميز كليات عن طريق اتضاح عناصرها .

ويصاحب عملية التمييز هذه عملية أخرى هي عملية التفسير ، أى العملية التي تسبغ على الخبرة معنى معيناً . فكلما تحددت الخبرة عن طريق التمييز ، اكتسبت معنى عن طريق التفسير . ذلك أن الحياة ترغمنا على العمل حتى نتكيف معها ، ولكن إذا كان الموقف غامضاً فإن السلوك الذي يثيره هذا الموقف يظل أيضاً غير محدد . وبذلك لا يتم التكيف إلا إذا تحدد الموقف فأصبح مفتاحاً أو إشارة لفعل محدد . فالأفعال المحددة وحدها هي التي يتم التكيف عن طريقها . وبذلك يكون معنى الموقف هو السلوك الذي يثيره . ويتناسب تحدد السلوك تناسباً طردياً مع مقدار تحدد المثير . فإذا ما وصلت الخبرة إلى مرحلة التفسير أصبحت بذلك خبرة كاملة ، إذ معنى ذلك أن تكون قد أدت الوظيفة البيولوجية المنتظرة منها ، وهي وظيفة التكيف ، ولا يرجى منها أكثر من ذلك - هذه هي قصة الخبرة

يعرضها لنا علم النفس . فالحياة تتحقق وتشبع حاجاتها عن طريق البيئة . والكائن الحى يتعلم كيف يعرف هذه البيئة عن طريق مرحلتى التمييز والتفسير . وبعبارة أخرى فإن الكائن الحى يستطيع أن يحقق الاتزان بين نفسه وبين موقف معين إذا كان ذلك الموقف متميزا عن غيره من المواقف مما يجعله مثيرا لاستجابة ملائمة .

فأين إذن مكان الخبرة الجمالية فى هذه الصورة ؟ طبيعى أن الخبرة الجمالية لا يمكن أن تنشأ من الخبرة العادية إلا إذا حدث تغيير ما فى هذه الأخيرة — ولا يخرج التعديل الذى يمكن أن يحدث فى الخبرة العادية عن أن يكون أحد اثنين : فإما أن يكون ذلك بإضافة شىء إليها أو بحذف شىء منها . ولكن الشىء الوحيد الذى يمكن إضافته إلى الخبرة العادية لا بد وأن يكون شيئا من ذاتها ، أى مزيدا من التمييز والتفسير . وهذا يجعلها عادية أكثر . وعلى ذلك لا يبقى إلا أن نفترض أن الخبرة الجمالية تنشأ عن الخبرة العادية بعد أن يحذف منها ما يجعلها عادية .

ولا يمكن أن تكون صفة العادية فى الخبرة نتيجة لعملية التمييز إذ بدون تمييز لا يمكن أن تكون هناك خبرة سوى الغموض والإبهام . أما ما يجعل الخبرة مفيدة ومحقة للتكيف ، ويصبغها بالصبغة العادية ، فهى ثمرة عملية التفسير ، أى المعنى الذى تكتسبه باعتبارها استجابة محددة لموقف محدد . إذ أن نتيجة عملية التمييز كما قلنا هو أن تصبغ الخبرة علامة لفعل ، أى وسيلة لغاية هى الفعل الذى يشبع حاجة عضوية للكائن الحى . فعالم الظواهر الموضوعية . بالنسبة للخبرة العادية ، ما هو إلا مخزن مملوء بالبطاقات ، تحمل كل منها إشارة لهذا الفعل أو ذاك من الأفعال التى تؤدى إلى خدمة الوجود البيولوجى . وعلى ذلك فلا بد وأن تكون نشأة الخبرة الجمالية عن طريق فعل تخيلى تتجرد فيه الخبرة مما تفرضه عليها الضرورة البيولوجية فى عملية التفسير فلا يبقى سوى عالم التمييز أو عالم الأشكال . وإذن فالخبرة الجمالية عبارة عن خبرة بالشكل له معنى باعتباره شكلا فقط ، إنها المعنى المستمد من جوهر التكوين لا من خارجه — وبمعنى آخر فإن الخبرة الجمالية هى جوهر الخبرة مجردا — فى الخيال — من كل عرض . إنها الحالة التى تكون فيها الخبرة ذاتها وليست نتيجتها ، هى الغرض . إن الحالة الجمالية هى حالة التلاشى فى موضوع الخبرة ، على عكس الخبرة العادية حيث يكون الاهتمام مركزا فى البحث عن إشباع ما عن طريق موضوع الخبرة . والعملى والجمالى هما النوعان الوحيدان للخبرة ، وإن وجود أحدهما لينفى وجود الآخر . أحدهما

تتخذ فيه الحياة معنى الصيرورة أما الآخر فتتخذ فيه الحياة معنى الكينونة . أحدهما يبحث عن الحياة أما الآخر فإنه يعيش بالفعل . أحدهما يجاهد فيه كل من التفكير والانفعال في سبيل الوصول إلى غرض ، أما في الآخر فإنهما يجدان الراحة بالفعل إذ لا حاجة بهما لغرض آخر خارج عن الخبرة ذاتها .

من هذا التعارض بين العملي والجمالي تتضح الوظيفة التكميلية للجمالي ظاهرةً بارزةً . فبينما يؤدي بنا العملي إلى التكيف مع البيئة جاعلا بذلك الحياة ممكنة ، نجد أن الجمالي يؤدي بنا إلى التكيف مع العملي جاعلا بذلك الحياة محتملة - وعلى ذلك يمكن أن يقال إن للجمالي وظيفة بيولوجية إذ أن الحياة الإنسانية مليئة بالشواهد على وجود رغبة ملحة في الراحة من الحياة باعتبارها صيرورة مستمرة .

ولا بد أن تكون هناك درجة عظيمة من الحساسية بازاء مادة الخبرة كشرط لحدوث الاستجابة الجمالية . فإذا لم يكن جوهر الخبرة حيا بالنسبة للشخص لدرجة تجعل للخبرة معنى في ذاتها ، فإنها لا بد وأن تلتبس معناها من الخارج ، كالشخص إذا لم يكن لديه من الأمور الخاصة به ما يشغل به تفكيره فإنه سيشتغل بأمور الآخرين ، إذا كان لا بد وأن يفكر في شيء ما . فإذا كانت العبقرية شرطا أساسيا لإخراج الإرادة إلى حيز الوجود . فإن الإحساس بما هو عبقرى لا بد وأن يكون « طريقا متسعا تتزاحم فيه جيوش الآثار لتغزو قلعة العقل » وقد دلت التجارب على أن الاستجابة الجمالية للموسيقى وظيفة لدرجة من الحساسية إزاء النغم نفسه أى المادة المحسوسة في الموسيقى . بمعنى أن الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يجدوا في القطعة الموسيقية أى معنى باعتبارها تكويننا له قيمة موضوعية ، يلتمسون ذلك المعنى في الصور الذهنية التي تستثيرها . ويمكن أن نقول بعبارات سيكلوجية إن درجة الحساسية للتفاصيل في كل منظم هي التي تحدد الدرجة التي يبرز بها معنى ذلك الكل باعتباره شكلا ، وأنه إذا ما كانت درجة الحساسية غير كافية لأن تدرك فيه أى معنى ، فإن المعنى يلتمس خارج الشيء المعروض مباشرة . فإذا كان الشيء المعروض غامضا في ذاته فإنه يمكن أن يتحدد عن طريق شيء آخر خارج عنه .

وتفسير الخبرة الجمالية على أنها جوهر الخبرة مجردا من غرضها ، أو معنى الشكل باعتبارها شكلا ، يتفق مع ما يتضمنه استعمال كلمتي « جميل » و« فنى »

في اللغة العادية — فكلمة جميل تستخدم عادة لتدل ، خارج مجال الفنون ، على قيمة فريدة يمتاز بها الشيء الموصوف . فنقول مثلا فكرة جميلة أو فعلا جميلا أو حركة جميلة أو صداقة جميلة أو غير ذلك . فما معنى الجمال في هذه التركيبات ، وما الفرق بين فكرة جميلة وفكرة طيبة . إن الفكرة تكون طيبة لأنها تكون نافعة — فالقيمة هنا مستمدة من شيء آخر خارج عن الفكرة ذاتها . كذلك يمكن أن يقال عن الفكرة الصحيحة . فهي صحيحة لاعتبارات خارجة عنها . أما الفكرة الجميلة فهي جميلة لذاتها ، أي أن لها قيمة ذاتية ، أي لها قيمة باعتبارها شكلا . كذلك الفعل الطيب ، فهو طيب لأنه يؤدي وظيفة . في حين أن الفعل الجميل جميل لذاته ، أي باعتباره شكلا ، وهكذا .

كذلك لفظ فن وفي يتعلق بالشكل . فأى إنتاج لا يمكن أن يقال عنه إنه فن لأنه يمثل نوعا معينا من الأشياء . فإذا كانت هناك صورة فنية فهي ليست كذلك لأنها تمثل حقلا أو شجرة أو شخصا . كذلك القصة لا تعتبر فنية لأنها تمثل مواقف إنسانية معينة . بل إن الصورة تعتبر فنية والقصة فنية والقصيدة فنية لأن الأسلوب الذي صيغت فيه كل منها أو الشكل الذي رسمت به — وليست المادة التي صنعت فيها — هو الذي أضفى عليها هذه الصفة — فالأفكار قد تكون تافهة أو فاسدة ومع ذلك لا يؤثر هذا في الكتابة من الوجهة الفنية .

وידعم هذا الرأي في الحبرة الجمالية النظريات الفلسفية التي قيلت في تفسير الجمال . وأقدم هذه النظريات ، النظرية المعروفة ، بنظرية التطهير أو التنفيس . فقد قرر أرسطو في كتابه « الشعر » أن سر إعجابنا بالمأساة هو أنها تطهر نفوسنا من انفعالات الشفقة والخوف . وكذلك فإنه يعزو مثل هذا التأثير إلى الموسيقى في كتابه « السياسة » . ورغم أن أرسطولا يشرح بصراحة طبيعة ذلك التطهير أو التنفيس في أى كتاب من كتبه ، فإننا نستطيع أن نستنتج ما يقصده من تعريفه للخوف في كتابه « الخطابة » إذ يقول : « إنه ألم أو اضطراب خاص ينشأ عن الإحساس بشر محقق ، وهو إحساس بطبيعته مؤلم وهدام » . وواضح من هذا التعريف أن التطهير من الخوف هو عبارة عن التخلص من ذلك « الإحساس بالشئ المحقق » . فلا يصبح الخوف في هذه الحالة انفعالا شخصيا مرتبطا بمحدث معين بقدر ما يصبح انفعالا مجردا مرتبطا بسير الحوادث العام ، الذي يصور لنا مصير الإنسان . وعبارة أخرى يتجرد الانفعال في خيالنا من متضمناته البيولوجية

ويصبح خبرة في ذاتها أو خبرة خالصة . وفي مثل هذه الحالة ينتفي أيضا القلق أو التوتر الذي يدفع للفعل ، وهو الصفة المميزة للانفعال اليومي . وينتج عن ذلك حالة ارتياح من عناء التوتر . فالجمال يشعرا بالارتياح عن طريق التنفيس أو التطهير .

وتقرر النظرية التي قال بها (بلو^(١)) وهي نظرية البعد النفسي^(٢) ، نفس الشيء تقريبا بعبارات مختلفة . فهو يقول إن الشخص إذا بعد عن ذاته نفسيا وهو واقف على حافة تل والبرق يبرق من حوله فإنه يصبح في حالة ارتياح لأنه يكون مشغولا في الظاهرة نفسها أكثر من انشغاله في التفكير في الخطر الذي يمكن أن يلحق به . والبعد النفسي ما هو إلا مرادف آخر للتطهير أو التنفيس ولا يزيد عنه إلا في أنه يشرح فقط كيف تحدث هذه العملية أي عملية التطهير .

وإن هذه الحالة من الارتياح الجمالي الناتج عن التطهير عن طريق البعد النفسي هي التي تجعلنا نصف الخبرة الجمالية بعبارات صوفية فنقول إنها لحظة الكمال أو الخلود أو التلاشي أو الاتصال بالحقيقة المطلقة أو غير ذلك من الصفات . ذلك أن حالة الارتياح الجمالي ، بما أنها حالة تتعادل فيها جميع القوى تعادلا تاما ، لذلك فإنها تكون بالفعل لحظة كمال خالية من كل توتر أو نضال . ولذلك أيضا فإنها تكون لحظة خلود إذ أن الوعي بالزمان والمكان من ظواهر إرادة الحياة ، وإرادة الحياة وحدها هي التي تخلق الوعي بالذات . كذلك فإن الحالة التي تنتفي فيها الإرادة وتلاشي فيها الذات ، كما أنها حالة كمال وخلود ، فإنها تعرض حقيقة مطلقة إذ أن الخبرة لا يمكن أن تصل إلى ما وراء ذلك .

والخلاصة أن كل ميزة للخبرة الجمالية إنما ترجع إلى كونها خبرة بالشكل . وينتج هذا عن تجريد الخبرة من ثوبها العملي ، أو بعبارات سيكولوجية تخليص الخبرة مما تضيفه إليها عملية التفسير بحيث لا يبقى للتأمل سوى ثمرة عملية التمييز ، وهي عالم الوجود الخالص . أي عالم الأشكال . فالخبرة الجمالية إذن في رأى علم النفس هي الخبرة بالشكل المنظم الذي اكتسب معنى من حيث هو شكل اتضحت فيه جميع التفاصيل .

محمد عماد الدين إسماعيل

(1) Edward Bullough

(2) Psychical distance